الفدائية الجهادية – الموجة الجديدة

أحمد رشيد

ترجمة سام برنر

ما إن وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، حتى صدرت أرفف من الكتب تخبر قرائها حول العالم عن ماهية العقائدِ الأساسيةِ للجهادِ وكيف قامت منظمة القاعدةِ بتشويهها. فالجهاد "موصّى بهُ" وليس فرض على كُلّ المسلمين، إلا أنه قابل لمختلف التفسيرَات ـــ فهناك الجهادُ الأكبر لتَنْقِيةِ الروح وعمل الخير وسط الأمة، والجهادِ الأصغر دِفَاعا عن الإسلام إذا صار موضع هجوم. ويحتوى كُلّ صحيح مِنْ الأحاديث النبوية التي جُمِعَها عِدّة علماء مسلمين بعد موتِ النبي بفترة طويلة، على وصف مختلف للجهادِ، مما أدى إلى كون مُناقشةِ الجهادِ دائماً مسألةَ تفسيراتِ مختلفةِ أكثر منها إتباع حرفي.

دعمت الولايات المتحدة والغرب جهادُ المجاهدينِ الأفغانِ ضدّ القوّاتِ السوفيتيةِ التي غزت أفغانستان في الثمانيناتِ، وحارب فيه حوالي ٤٠ ألف أفغاني، تلقى العديد مِنْهِم تعليماً إسلامياً وتدريبا عسكريَا دعم بأموالِ وكالةَ المخابرات المركزيةِ وحصلوا على الملجأ الآمن مِنْ مديريةِ المخابرات الداخليةِ الباكستانية. ولقي البعضُ حتفهم في القتال، بينما عاد آخرونُ إلى ديارهم لنشر الرسالةِ، أخَذين مَعهم قوائم طويلة بأسماء من تعرفوا عليهم في جامعةِ الجهادِ التي أسّسوها في المُدنِ الباكستانيةِ كمدينة بشوار. ثم صارت كلمة الجهادِ في التسعينياتَ كلمةَ سيئة المعنى عندما شرع الأفغان في ذبح بعضهم البعض في حرب أهليةِ داميةِ، ادعى كلا الجانبينِ فيها بأنه يجاهد في سبيل اللهَ. وتبعهم المسلمونُ في أجزاء أخرى مِنْ العالمِ مدعين بأنهم قائمين على الجهاد بقتلهم أخوتهم من المسلمين.

عندما قرّرَ أسامة بن لادن البدء في الجهادَ ضدّ الولايات المتّحدةِ والغربِ مِنْ قاعدتِه الجديدةِ في أفغانستان عام ١٩٩٦، لم يأخذه الكثيرون مأخذ جد. بل إن عِدَّة تطوراتُ في ذاِك الوَقت لم تحصلْ على الاهتمام المناسب مِنْ الحكوماتِ الغربيةِ: أفغانستان التي صارت مصنع تفريخ جديدِ لجهادِ دولي ضدّ الغربِ بقيادةِ عربية، والتمرد الذي دام خمسةَ عشرَ عاما ضدّ الحكومةِ الهنديةِ في كشمير والذي نشر مهاراتَ التفجير الانتحاري في جنوب آسيا، والحرب الأهليةَ الدائمة في الصومال التي أزالتْ أيّ قوة مركزية واضحة وسمحت لمجموعاتِ الجهاديين المستقلين على البروز في الفوضى الناتجة، بينما ارتأى العالم بأن النزاع الإسرائيلي ـ فلسطينيٌّ لا يمكن حله بعد محاولةَ الرّئيس كلنتون الفاشلةِ لتَعزيز السلامِ في نهايةِ إدارتِه، واعتناق عدد متزايد مِنْ الفلسطينيين لأفكارِ الجماعات الإسلاميةِ المتطرّفةِ.

كتابان جديدان نشرا مؤخرا حول هذه الفترةِ المبكرة في التسعينياتِ تجعلك قرأتهما تتسأل إن كان من الممكن تفادي وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر إذا تم نشر الكتابين عشرة أعوام قبل حدوثه؟؟ الأول من هذه الكتب يدعى "بداخل الجهاد" لمؤلفه عمر النصيري وهي سيرة شخصية لجاسوس مغربي المولدِ اخترق المجموعات الإسلامية في التسعينياتِ لحساب المنظماتِ الاستخبارية الأوروبيةِ. أما الكتاب الثاني فهو للعالمِ نرويجي برينجار لايا ويدعى "مهندس الجهاد العالمي"، ويتحدث عن أبو مصعب السوري أحد كبار المخططين في منظمة القاعدةِ الذي اعتقل في باكستان في ٢٠٠٥ وسلّمَ إلى الولايات المتّحدةِ حيث اختفى من النظر ويعتبر من السجناء المفقودين. كلا الكتابين يدور حول الرجالِ الذين نالوا تدريبهم في أوائل التسعينيات داخل المعسكراتِ الإرهابيةِ في أفغانستان— قبل وصول بن لادن إلى هناك — ومَنْ ثمّ سافروا إلى دول أوروبا المختلفة لتَعْبئة المسلمين للجهادِ الدولي الناشئ. كَانتْ المعسكراتُ الأفغانية تُزوّدُهم بالتدريب العسكريَ والتقنيَ، وبالتعاليمَ الأيديولوجيَة، وعلاقات عالمية متشعبة جديدة في وقت سبق وصول القاعدة في موقع الأحداث بكثير.

إلا أن الشباب الذين تَدرّبوا في هذه المعسكراتِ لَمْ ينالوا تعليما من المَدارس الإسلاميةِ الدينية ولم تلهمهم الأفكار الإسلاميةِ المتطرّفةِ بقدر ما ألهمتهم رغبتهم في رُؤية العالمِ، وحمل الأسلحة، والمغامرةُ. بالنسبةَ للكثيرين كَانَ هذا هو عالمَ الألعابِ الحقيقةِ. كتب النصيري (وهو اسم مستعار) يقول

> "أدركتُ بأنّني حَلمتُ بهذه اللحظةِ لسَنَواتِ. كنت وسط جبال أفغانستان والنار تطلق حولي من كل الجهات. . . . هنا المدسساتَ والبنادق الهجومية وقذائف الهاونَ تطرق الجبل كلها معا كالجوقةِ. كنت ارتعش أحياناً وأحمد الله على أنه جاء بي إلى هنا."

كان يمكن حينها كسب هؤلاء الشبابِ نحو شيءِ بناء أكثر من القتال الدامي لو أن الأنظمة الإسلامية والبلدانَ الغربية تداركت ما يجري. ولكن برامجُ التعليم البديلةِ اليوم التي تُعلّمُ مهاراتَ مفيدةً — وتعتبر الإستراتيجية الرئيسية لمكافحة الجهادِ في العراق وأفغانستان والمملكة السعودية، وغيرها — جاءت غير كافية تماما ومتأخرة للغاية، كما أنها تواجه صعوبات جمة فيَ التّنفيذ لأن الإرهابيين الآن صاروا محنّكين فكرياً أكثر بكثير مما كانوا عليه في أوائل التسعينيات.

انتهت فترةِ الغسق تلك بعودةِ بن لادن إلى أفغانستان عام ١٩٩٦ إذ قام بإعادة تنظيم العرب والأجانب الآخرينَ الذين قبلوا به زعيما لهم، مقدما لهم تفسيراً جديدًا للجهادِ كحرب لا شروط لها ولا تنتهي ضدَ الغربِ و"سدنته" في العالمِ الإسلامي. ومع قصفْ منظمة القاعدةَ لسفارتي الولايات المتحدة في أفريقيا عام ١٩٩٨، مسببةً خسائر كبيرةً في الأرواح وسط المسلمين الأفارقة، أعلن بن لادن بوضوح يُعلنُ بأنّ قتل المسلمين والنِساءِ والأطفال جزءَ شرعيَ مِنْ اللعبةِ، بالرغم من تحريم القرآن لإصابة المدنيين في الحربِ وما يفرضه خصوصاً حول حِماية النِساءِ والأطفال.

لم يشك أحدُ في الغربِ حينها إلى أي مدى حرف بن لادن تعاليم الإسلام، فوسائله ليس بها ما يتعلق بالدين بل كلها تعمل على كَسْب السلطة والتأثير السياسي. لَمْ يَعُدْ الجهاد مناورةً دفاعيةً بل سلاحَ هجوميَ ارتقى بمفهوم الاستشهاد. لكُلّ دين شهدائُه ـــ لنتذكر هنا المَسيحِيِّين الأوَائِل واليهود وهم يتحدون الإمبراطورية الرومانية ـــ كما أن للإسلام مجموعة من الشهداءِ. لكن القرآنَ يُحرّمُ الانتحار بشكل واضح، فلم يستشهد في الإسلام إلا من كانت هذه هي وسيلته الأخيرة في الحياة، وأبدا ليس بطريقة مخطط لها عمدا، إلى أنْ بَدأتْ منظمة القاعدةُ بقلب النصوص الدينيةِ رأسا على عقب. ويري العديد مِنْ المعلّقين في هذا التغيير الجذري في مفهوم الاستشهاد ترخيصا للإرهابِ الإسلامي الحديثِ.

كانت منظمة القاعدة قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر تنفذْ المهمّات الانتحارية جنبا إلى جنب مع الجهاد على ساحات المعارك التقليدية، داعمة لحلفائها من حكومة الطالبان والإرهابيين في كشمير، رؤساء حرب العصابات في الصومال. ومن يصورهم النصيري ولايا من المتطرّفينُ أبان التسعينياتِ ما كَان ليجول بخاطرهم إنهاء حياتهم في هجوم انتحاري متعمّدِ ـــ فقد كانوا مستمتعين بشدة عِنْدَهُمْ بَنْشرُ الجهادَ حول العالم. صحيح أن القاعدة لا تزال منشغلة بحروبِ العصابات التقليديةِ، كما هو الأمر في العراق وأفغانستان، إلا أن مفهوم الجهاد لدي القاعدة وحلفائِها الدوليين اليوم، بعد مرور سبعة سنوات على الحادي عشر من سبتمبر، يعني بشكل متزايد أمراً واحدا ـــ عملية تفجير انتحارية. وهو التغييرُ الأيديولوجي الذي علينا مواجهته. فحاليا لا يعتبر المرء مجاهداً جيداً ما لم يَقْتلَ نفسه وآخرين – الكثير من الآخرين – في عملية انتحارية. وقد مر التفسيرَ المتطرّفَ للجهادِ في الفترةِ التالية لأحداث سبتمبر بتحول جذري آخر، فانحط ليصير عبادة لعمليات التفجير الانتحارية ضدَ أيّ كان وبلا دافع معقول في أغلب الأحيان. ونرى عند مشاهدتنا أشرطة الفيديو التي يصورها هؤلاء :الشهداء" قبيل تفجيرهم لأنفسهم مباشرة، نراهم يميلون إلىُّ تَعنيف مُشاهديهم بعباراتِ مثل "نحن نعشق الموت بينما أنتم الأمريكان تعشقون الحياةَ." وعندما تعرض هذه الأشرطة على قنوات التلفزيون الغربي فهي تجعل المسلمين والإسلام يبدو سخيفا جداً وشبه مجنون في نظر المشاهدين، وتُساعدُ على تأجيج الخوف من الأجانبَ ومعاداةَ المسلمين في الغربِ ـــ والخوف من الأجانبِ يُساعدُ تباعاً على تَزويد رُتَبِ القائمين بالعمليات الانتحاريةَ في العراق، أفغانستان، وباكستان بمُجنَّدين جدد، فتصبح حلقة مفرغةً لا خروج منها.

ولكن بالرغم من كل ما سبق ذكره فإن مفهوم الجهاد يتغير باستمرار، كما يثبت ذلك مايكل بونر في كتابه الشيق "الجهاد في التاريخ الإسلامي". فهو يقول بأن نجاح الإسلام في بدايته يرجع إلى توحد البدو العرب في أمة يعرفها الإيمان بالله ومن أهم مميزاتها الاعتناء بالفقراء: "فأكثر النشاطات بروزا في هذه الجماعة المكية هو الكرم والعناية بالفقراء والمحتاجين.. ولا يمكننا أن نشك مطلقا بأن كل ذلك تضمن تغييرا عميقا على المستوى السياسي والاجتماعي في بلاد العرب."

ولكن الدعم الاجتماعي في الدول المسلمة المعاصرة يكاد مع الأسف أن يكون منعدما، لأن غالبية النخب المسلمة، إسوة بالمتشددين من الإسلاميين، يتجاهلون كون للدولة

مسؤولية تجاه المجتمع المدني والفقراء ولا يلتزمون بأي إصلاح اجتماعي ذو شأن مما ساعد على خلق الأزمات في العديد من الدول المسلمة. ومع ذلك يفهم غالبية المسلمين دينهم على أنه مهتم برفاهية المحتاجين – وما علينا سوى ملاحظة كثرة الاستشهاد بالإسلام كدين مسالم والبلايين التي يدفعها المسلمون نقدا كزكاة للفقراء.

ومع بروز فترة التوسع في التاريخ الإسلامي أصبح الجهاد أيديولوجية امبريالية تعضد النجاحات العسكرية، ليصبح أداة دفاعية في القرنين الثامن والتاسع عشر ضد توسعات البريطانيين والفرنسيين والروس داخل العالم الإسلامي. ويقول بونر في كتابه أنه "ليس هناك في تاريخ الجهاد الإسلامي الطويل ما يحكم علينا بالعنف والفشل المتكرر. فتاريخ الجهاد اشتمل باستمرار على إحياء الصور والتعبيرات القديمة ولكنه في نفس الوقت كان دائما تاريخا لمؤسسات سياسية جديدة وحلول جديدة مبتكرة."

فلننظر إلى أفغانستان على سبيل المثال – لم يقع هجوم انتحاري واحد طوال حرب الأفغان الطويلة ضد السوفييت والتي دامت عشرة سنوات. وكان أول هجوم انتحاري لمنظمة القاعدة هو اغتيال أحمد شاه مسعود، القائد الأفغاني المحبوب والمعادي للطالبان، على أيدي اثنين من مقاتلي التنظيم، والذي وقع قبل يومين من أحداث المركز التجاري العالمي في نيو يورك. ولم يتبع ذلك سوى قلة من الانفجارات حتى عام ٢٠٠٤، عندما قام المتمردون الطالبان بستة هجمات ضد القوات الأمريكية والأفغانية الحكومية، تلاها انفجار في عدد الهجمات الانتحارية: ٢١ عام ٢٠٠٥، ١٣٦ عام ٢٠٠٦ و ١٣٧ عام ٢٠٠٧. ويزداد عدد ضحايا المجازر يوما بعد يوم، فقد ارتفع عدد القتلى العام الماضي بنسبة ٥٠ بالمائة بالرغم من أن عدد الهجمات بقى تقريبا كما هو. ففي عام ٢٠٠٦ قتل ١١٠٠ شخص أثر الهجمات الانتحارية، بينما ارتفع هذا العدد إلى ١٧٣٠ في العام التالي. وقد ضرب الطالبان أهداف مكشوفة فقتلوا ٩٠٠ شرطي أفغاني و٤٠ من موظفي المنظمات المانحة للمعونة في العام الماضي وحده في مختلف أنواع الهجمات، ومنها الانتحارية أيضا. أما هجمات المسلحين من الطالبان وأفراد منظمة القاعدة فقد نالوا من حياة الكثيرين غيرهم.

والذي جعل الهجمات الانتحارية ممكنا هو التدريب والتلقين الجديدين الذين تقوم بهم منظمة القاعدة، إضافة إلى تجارة مزدهرة بالمخدرات التي وفرت للطالبان ومنظمة القاعدة كميات ضخمة من الأموال يستعملونها في تعويض أسر الانتحاريين الشباب. وما يزيد الأمر مأسوية هو أن الأطفال والنساء حاليا يعتبرون أهداف حلال – ففي السادس من نوفمبر ٢٠٠٧ قتل ٧٢ مواطن أفغاني بمدينة بلغان أثر هجوم انتحاري، كان من بينهم ٥ أعضاء من مجلس الشعب و٥٩ تلميذا، بينما أصيب ٩٣ تلميذ غيرهم بجراح. ويقوم الطالبان حاليا على تفجير المدارس في أفغانستان بانتظام مريع، مما أجبر ٦٠٠ مدرسة من مجموع ٨٥٠٠ على إغلاق ابوابها، وفقد ٣٠ ألف طالب حقهم في التعليم جراء ذلك. كما قتل ما يزيد على ١٥٠ معلم.

***

تصف مجموعة المقالات التي قام بتحريرها روبرت كروز وأحمد طرزي تحت عنوان "الطالبان وأزمة أفغانستان"، تصف كيف قام الطالبان بإعادة تعريف أنفسهم من خلال التعبئة الجديدة والشبكات الدولية في باكستان والدول المجاورة وبمساعدة منظمة القاعدة. وتم تمويل هذا النمو بأموال تجارة الأفيون وغيره من المخدرات. كما تصف المقالات كيف صارت حركة الطالبان حركة دولية مع وصول المدربين من العراق وباقي الدول العربية إلى معسكرات الطالبان لتلقين الإنتحاريين. ويقول عبد القادر سنو في مقالته "شرح قدرة الطالبان على تعبئة قبائل الباشتو" أن الولايات المتحدة تعاب لعدم تفكيك قوات الباشتو والتخلص من قادتهم العسكريين بعد هزيمة السوفييت في أفغانستان، مما أعطي الإقليم "رموز دولة وهمية" في وقت سابق على حينه، مضيفا أنه كان "الأحرى على الولايات المتحدة وعملائها القيام بما قام به الطالبان قبلهم – أي تفكيك أي بنى قوة منافسة لهم – بدلا من التركيز على خلق دولة من العدم."

أما في مقالته "القرآن والكلاشينكوف واللابتوب" يقول الكاتب الإيطالي أنطونيو جيوستوزي بأنه وبعد انتصارات ٢٠٠١ أرادت الولايات المتحدة الحصول على رضا أمراء الحرب الأفغان وبالتالي رفضت أن تنزع عنهم السلاح آملة بأنهم سيقومون على حماية الأمن والنظام في أفغانستان بينما القوات الأمريكية منشغلة بالحرب في العراق. لم تستثمر الولايات المتحدة أموالها جيدا في أفغانستان ولا بالصورة الكافية، إن كان ذلك من حيث قتال الطالبان أو بناء المؤسسات الحاكمة. ونحن نرى نتائج ذلك اليوم مع ارتفاع عدد الهجمات الانتحارية والعسكرية من قبل الطالبان والرفض المتزايد للدول الأوربية إرسال رجالها إلى أرض المعارك كجزء من قوات حلف شمال الأطلسي.

وكنتيجة لإنشاء الطالبان وحلفائهم من المتطرفين لقواعد في المناطق القبلية الواقعة على الحدود مع باكستان لضرب الجيش والاستخبارات والشرطة في كل من البلدين، ارتفع عدد الهجمات الانتحارية في باكستان من ستة عام ٢٠٠٦ إلى ٥٦ عام ٢٠٠٧ راح ضحيتها ٢١٧ مدني و٤١٩ من رجال الأمن. وكان من أكبر انتصارات الطالبان في باكستان اغتيال بانزير على بوتو في روالبيندي يوم ٢٧ ديسمبر العام الماضي بمدينة روالبيندي قبل عشرة أيام من الانتخابات التي كان يتوقع لها أن تفوز بها، والتي فاز بها حزبها بالرغم من ذلك في فبراير ٢٠٠٨. وفي الأشهر الأربعة الأولي من ٢٠٠٨ وقع ١٩ هجوم انتحاري داخل باكستان، قتل فيه ٢٧٤ رجل أمن وأصيب مئات غيرهم بجروح.

في كل من أفغانستان وباكستان هناك حملاتَ نظّمتهاً القاعدةِ وجماعات الطالبان الأفغان والباكستانيون، ومجموعاتِ إسلاميةِ أخرى من وسط آسيا لزَعْزَعَة أمن البلادِ، وهي حملات تدعم بعضها البعض وإن كانت مستقلة في حد ذاتها. ومِنْ بين الانتحاريين الأوائل كَان هناك العديد من الأيتامَ الباكستانيينَ والأفْغانَ أو المراهقين المرضى عقلياً، تم تجنيدهم مِنْ الملاجئ، وبيوت الأيتام، ومخيّماتِ اللاجئين الأفغان في باكستان. كان تَوقعَ زعماءَ الطالبان بأنّ تضحيةَ هؤلاء ستأتي بموجةً من المُجنَّدين أكثر قدرة والتزاما توقعا صحيحا، فقد ظهر الآن نظام تجنيد شبيه بأحزمة النقل الآلية في المصانع. يتم تجنيد المراهقينُ المتحمسين مِنْ الخلاوي في باكستان في منطقةِ قبائل الباشتو على طول

الحدودِ مَع أفغانستان، ويَنتقلونَ من ملجأ آمن إلى آخر ملتقين مختلف أشكالَ التدريب. فالذين سيصبحون قنابل بشرية، على سبيل المثال، يتعلمون بأن عليهم خفض رؤوسِهم عند سَحْبَ فتيل القنبلة حتى تنفجر مع القنبلة ويستحيل معرفة القائم بالهجوم. وفي هذه الأثناء تقوم فرقُ منفصلة باختيار الأهدافُ المستقبلية في أفغانستان.

يقول مسؤولو المخابرات الأوروبية في كابول وإسلام آباد بأن الموارد المطلوبة للقائمين بالعمليات الانتحارية من قادة، ومجندين، وتدريب، وتلقين، وموادِ — تقع كُلها على الجانبِ الباكستاني من الحدودِ، حيث لم تقم السلطاتُ الباكستانية بعمل الكثير في سبيل التخلص منهم حتى الآن. ويعتبر وجودُ بن لادن، الذي تعتقد المخابرات الأمريكيةِ بأنَّه على الجانبِ الباكستاني للحدودِ إلهاماً لأعضاء التنظيم. فقد أصبح إنتاجُ الأحزمةِ الإنتحاريةِ في منطقةِ الباشتو العشائريةِ صناعة منزلية، لا تختلف كثيرا عن أي نشاط حرفي يدوي محليٍّ آخر في العالم الثالثِ. تقوم أحد الأسر على حياكة الحزام وتصنع أسرة ثانية الفتيل بينما تتخصص ثالثة في صب محمل الكوريات إلخ. ثم يقوم الطالبان بجمعها وتسديد ثمنها. ويدعي هؤلاء بأن مئات من الشباب يصطفون راغبين في الانضمام إلى صفوف الانتحاريين، وبأن مشكلتهم الرئيسية تكمن في إيجاد أهداف مفيدة وفي نقص العبوات المتفجرات. وفي حين أن غالبية الانتحاريين في باكستان من أهل تلك الدولة، ففي أفغانستان تتضمن أعدادهم الأفغان والباكستانيين وسكان منطقة كشمير وأشخاص من وسط آسيا وشيشان وأخيرا تركي مولود في ألمانيا دخل بسيارته الملغومة في الثالث من مارس إلى مخفر عسكري أمريكي بالقرب من مدينة خوست، قاتلا جنديين أمريكيين واثنين من الأفغان، بينما أصيب ١٥ آخرون بالجراح.

يَحْملُ حزامُ نقل إنسانيُ مماثلُ الأفارقة، والعرب، والأوربيون إلى العراق، لا لغرض إلا ليُفجّرُوا أنفسهم. بلغ معدلُ منْ ثمانية عشرَ الهجمات الانتحارية في العراق في أبريل هذا العام ثمانية عشر انفجارا مقابل ثمانية في الشَهر عام ٢٠٠٧، طبقاً لناطق عسكري أمريكي في بغداد. عبادة الانتحار أصْبَحتْ مقبولة لدرجة أن مقاتلين عاديين في منظمة القاعدةِ يَلْبسونَ الآن الأحزمة المتفجرة كجزء منْ عدتهم عند خوضهم معاركَ تقليدية ضد القوات الأمريكية. فالأحزمة تَمْنَعُ أخذهم أسرى أحياء، وتَسْمحُ لهم بقتْل الأمريكان حتى عندما يَمُوتونَ، ولكنها قبل هذا وذاك تَرضي رغبةَ مرتديها للعَيْش مع فكرةَ الاستشهاد واعتناقها بشكل ثابتِ.

ومع ذلك فإن تكتيك العمليات الانتحارية لا يؤدي إلى انتصار في الحروب أو إسقاط أنظمة أو التأثير في معتقدات السكان المحليين المترسخة. ولا يمكن للانتحاريين طرد القوات الأمريكية من العراق أو قوات حلف شمال الأطلسي من أفغانستان. ولكن لهذه العمليات أن تخلق وسط السكان شعورا واسع الانتشار بالرعب والحيرة وعدم الأمان تجعل أية محاولات من قبل مؤسسات الدول والقوات الغربية لكسبهم إلى صفهم عقيمة بشكل متزايد. العمليات الانتحارية لا تؤدي إلى نصر المتمردين، ولكنها تخلق ورطة سياسية تكاد تصل إلى حد الفوضى لا تستطيع القوات الحكومية فيها الانتصار ولا يتسنى لإعادة البناء أن تتم. ويمكن أن تستمر الحرب ما دام هناك إرهابيون راغبين في الانتحار منفجرين. وللأسف، فشل القادة السياسيون وعلماء الإسلام في مواجهة هذا الهجوم

بواحد مضاد، فلم يدينه بصفته أمرا محرما إلا قلة من علماء الدين البارزين، ولم يعترضوا على عدم شرعيته في الإسلام لكون الانتحار في حد ذاته حراما. ويقول أخرون من علماء الإسلام أنه في حين تعتبر العمليات الانتحارية ضد المسلمين حراما إلا أنها حلال ضد القوات الغربية الكافرة. وفي باكستان لم يدين أي من القادة الإسلاميين الكبار منظمة القاعدة وحلفائها علنا، بل أن معظم القادة الدينيون في حالة نكران للواقع، ويصرون جهارا نهارا بأنه لا وجود لشيء اسمه منظمة القاعدة وبأن الأمر برمته من وحي خيال الساسة الأمريكيين كوسيلة للتحكم في العالم الإسلامي.

حاول المسؤولون الأمريكيون كسب ود من يدعونهم بالمسلمين المعتدلين إلى جانبهم ولكن هذه السياسة أثبتت فشلها بشكل ذريع. فالمسلمون أنفسهم حاليا يجدون صعوبة في تعريف ما هو معتدل لمجرد أن حتى المسلمين الليبراليين والمتعلمين في الغرب يعارضون سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط بشدة. وقد يكون من الأفيد تعريف المسلمين الليبراليين على أنهم يعارضون التطرف، إلا أن عدد هؤلاء قليل للغاية. وبسبب الجهل المتفشي في الدول الإسلامية، صارت كلمة "ليبرالي" في حد ذاتها كلمة قذرة عندما يصف بها أحد القادة المسلمين، الذين يخافون من أن يؤدى هذا الوصف بهم إلى مواجهة مطالب بتطبيق الديمقراطية، في حين تشعر نخبة علماء الدين بأن فكرة الليبرالية في حد ذاتها تهدد وجودهم.

هناك في واقع الأمر الكثير من النقاش في باكستان والدول الإسلامية الأخرى حول ما هو التطرف – نقاش في الصحف والجامعات وداخل المؤسسات الحكومية. إلا أنه ما لم تقم السلطات الحكومية في المنطقة بالترويج بشكل نشط لإسلام معتدل، وتكافح التطرف بشكل واضح، فإن المجتمع المدني في هذه الدول أضعف من أن يقوم بذلك لوحده. وبالإضافة إلى ذلك، لا يستطيع الغرب كسب الحجج الدينية مطلقا ما دام استمر في احتلال العراق والدول الإسلامية الأخرى عسكريا.

من المفترض إلا تتمثل إستراتيجية الولايات المتحدة في إيجاد "المسلمين المعتدلين" ومن ثم ختمهم بعلامة "صنع في أمريكا"، بل في تعزيز المجتمع المدني والمؤسسات الديمقراطية. إلا أن الولايات المتحدة تجاهلت ذلك تماما في اعتمادها على القوة العسكرية لشن "حرب ضد الإرهاب" هي في حد ذاتها عمل طائش. فبدلا من صرف المال على تحسين نوعية المدارس الدينية لمجرد أن السلطات الباكستانية وغيرها يطالبون بذلك، كان من الأحرى على الحكومات الغربية تمويل التعليم الحكومي العلماني وتحسين نوعيته من خلال مده بمعلمين أفضل وبناء مدارس أكثر مما يقدم بالتالي خيار بديلا عن الخلاوي والمدارس الدينية. تدعي البلدان الغربية بأنها تبحث عن "المعتدلين من المسلمين" ولكنها في ذات الحين تتفادى موضوع تقديم المعونات المالية الكافية والمنطقية للتنمية الاقتصادية والتعليم في البلدان الإسلامية. والأمر برمته يناسب المتطرفين الدينين لأن تقسيم الغرب للمسلمين إلى معتدل ومتطرف بدون أن يقوم بدعم هؤلاء المعتدلين بأية طريقة لا يؤدي سوى إلى الكشف للمتطرفين عمن معهم ومن ضدهم.

منذ الحادي عشر من سبتمبر والولايات المتحدة ومن يحالفها في "الحرب ضد الإرهاب" فقدوا التواصل مع مشاعر واحتياجات الأهالي في البلدان المسلمة. فحوالي ٨٠ بالمائة

من المعونة الأمريكية المرسلة إلى باكستان والبالغة حوالي ١٠ بليون دولار منذ عام ٢٠٠١ تستخدم في تقوية الجيش الباكستاني. وتصرف الولايات المتحدة في أفغانستان حوالي بليون دولار شهريا في أفغانستان و٩,٨ بليون شهريا في العراق على المجهود العسكري وأجهزة الأمن المحلية. وبالمقارنة لم يتم صرف سوى مقدار قليل على إعادة التعمير وبناء الدولة وتعزيز مؤسسات المجتمع المدني. ومتى تم إجراء الانتخابات أو الإعلان عن دستور جديد (إن كان ذلك في أفغانستان أو العراق) فإن المؤسسات الديمقراطية الجديدة في هذه الدول – مثل مجلس الشعب أو الأحزاب السياسية أو النظام القضائي والحكومات المحلية – لا تجد الدعم الكافي وبالتالي تفشل في تقديم الخدمات المحلية المنوطة بها.

ففي باكستان، قررت الولايات المتحدة تأييد الرئيس بيرفيز مشرف وهو ديكتاتور عسكري حاول على مدى العام الماضي قمع كل قوى الديمقراطية في بلاده التي قد تمنعه من البقاء في السلطة، فكتم أنفس الصحافة وطرد كبار القضاة من مناصبهم، وخرب دستور البلاد. إلا أن سلطته تلاشت بنفس السرعة التي تضآلت بها شعبيته بعد انتخابات فبراير التي فقد فيها حلفائه مقاعدهم، وسمحت الحكومة الجديدة بقيادة حزب باكستان الشعبي لوسائل الإعلام بالعمل بحرية وأرجعت القضاة إلى مناصبهم بينما يبحث الحزب عن طرق جديدة لمكافحة التطرف، بالرغم من أن تركة تسع سنوات من الحكم العسكري لا يسهل التخلص منها. فمن جهة حارب مشرف منظمة القاعدة وجنى مكافآت الأمريكيين، ومن جهة أخرى سمح لأجهزته الأمنية بإيواء الطالبان الأفغان في باكستان كورقة يلعب بها في حالة سقوط الحكومة الأفغانية الحالية، مما زاد من الغضب ضد الولايات المتحدة وسط الشعب الباكستاني.

وصف كاتبان هما المغربي عمر النصيري والنرويجي برينجار ليا حياة إثنين من المجاهدين وصفا يبين لنا ما كان من شأنه أن يحدث إذا كان الساسة في بلدان الغرب أكثر إطلاعا وفطنة، وكيف كان يمكن إيقاف منظمة القاعدة عند حدها قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر بفترة طويلة. يقول النصيري في كتابه (الجهاد من الداخل) بأنه وقع تحت تأثير المجاهدين الجزائريين لأول مرة في أوائل التسعينات في بلجيكا، وأنه بدأ يعمل جاسوسا للطرفين مع المخبرات الفرنسية أولا، ثم مع الألمان والبريطانيين. وكان يوفر المتفجرات للمسلحين في الجزائر ثم ذهب إلى أفغانستان للتدريب وأخيرا أستقر في بريطانيا حيث حاول الترويج للجهاد العالمي. ولكنه في نفس الوقت كان يمد المخابرات الغربية بالمعلومات حول التحركات المسلحة في شمال أفريقيا والشرق الأوسط وعن قادتهم المنفيين في لندن. وكان يتناول الكحول ويتردد على الملاهي الليلية ويصاحب الفتيات، وبالرغم من إنجذابه إلى مبادئ الجهادية إلا أنه لم يستطع التوقف عن التشكيك فيها. يقول النصيري في كتابة "أمر واحد أقلقني فعلا، إلى وهو ماهية الأسلام المعاصر."

> ".. نحن معتمدون تماما على الغرب – للحصول على ملابسنا، سياراتنا، تعليمنا، غسالات أطباقنا.. على كل شيء. وهو أمر مذل ويشعر بذلك جميع المسلمين. لقد كنا روادا لقرون تاركين الغرب خلفنا، بل كنا أكثر

الحضارات تقدما في العالم. أما الآن فنحن متخلفون لدرجة أننا لا نستطيع خوض حروبنا بدون أسلحة أعدائنا."

وفي عام ١٩٩٥ سافر النصيري عبر باكستان إلى خالدين، وهو معسكر لتدريب الإرهابيين في أفغانستان نال من الشهرة ما نال فيما بعد بسبب بن لادن. وهنا تعلم النصيري الأساليب العسكرية، وعلم بأن الجهاد يمنع قتل الأطفال والنساء، وتدمير الكنائس ومصادر المياه والمدارس، وبأنه يمنع الهجوم على أي شخص أثناء الصلاة مهما كان دينه. "بالطبع هناك أنواع عدة من الجهاد،" يقول النصيري ويواصل

"هناك جهاد النفس، جهاد التعلم والدراسة. هناك جهاد اللسان، وجهاد بالأعمال أو حتى بالتبرع بالمال لدعم الجهاد الأعلى.. الحرب المقدسة."

وما يهمنا في هذا الأمر هو أن مفهوم الجهاد كما تعلمه النصيري مبدئيا كان يتسم بقواعد سلوكية تخلت عنها منظمة القاعدة تماما. وقد تخلى الفرنسيون عن النصيري وتجاهلته المخابرات البريطانية فعمل مع الألمان. ويصف في كتابه تفصيلا قلة اهتمام المخابرات الغربية بظاهرة الجهاد في أواخر التسعينات. وهو مستقر في ألمانيا تحت اسم مستعار. وبعد وقوع أحداث سبتمبر قرر أن يكتب مذكراته.

أما السوري مصطفى بن عبد القادر ست مريم نصار، والمعروف بلقب أبو مصعب السوري، فهو موضوع كتاب المؤرخ النرويجي برينجار ليا (مصمم الجهاد العالمي) وقد كان جهديا ملتزما منذ نعومة أظافره. وكان أبو مصعب يعمل صحفيا وموالع بالتاريخ، بل كان أكثر عملاء منظمة القاعدة ذكاء وإطلاعا وبصيرة. آمن أبو مصعب طويلا بتوسيع الرقعة التي يتحكم فيها الجهاديون، ويحاول الطالبان ومنظمة القاعدة اليوم إعادة الأراضي التي خسروها عام ٢٠٠١ في مناطق قبائل الباشتو على الحدود بين أفغانستان وباكستان. وكتب يقول "لن نخرج بدولة لنا بدون مواجهة على أرض المعارك وبدون نزع الأرض نزعا. هذا هو الهدف الإستراتيجي لمشروع المقاومة." ووجه أبو مصعب نقدا شديدا لبن لادن لقيامه بأحداث الحادي عشر من سبتمبر قائلا أنه عرض بذلك نظام الطالبان لانتقام الولايات المتحدة. أما وكالة الاستخبارات الأمريكية سي أي إيه فاحتاجت إلى عدة سنوات قبل أن تدرك بأن أبو مصعب مفكر مهم بالنسبة لمنظمة القاعدة. وبالرغم من اعتقاله في باكستان إلا أنه من غير المحتمل أمن يكون أبو مصعب على علم بموقع بن لادن لاختلافاته السابقة معه. وهو بلا شك مصدر هام للمعلومات بالنسبة للسي أي إيه – هذا أن جعلوه يتكلم – وخاصة حول خلايا المجاهدين في أوربا حيث عاش وعمل لسنوات طوال.

كتابان لمحللين سياسيين هما دانيال بايمان وفيليب غوردون – (حرب الجبهات الخمس) و(كيف نكسب الحرب الصحيحة) – ينتقدان بفاعلية سياسات الإدارة الأمريكية في ظل الرئيس بوش ويشرحان ما المطلوب من الرئيس المنتخب الجديد القيام به بخصوص الجهاد. بايمان يعمل خبيرا لمكافحة الإرهاب بجامعة جورجتاون، وحاصلا على زمالة معهد بروكينز. أما غوردون فكان يعمل محللا بالمجلس الوطني للأمن وهو أيضا حاصل على زمالة معهد بروكينز. ويعرض كلاهما أفكارا منطقية وسياسات كان من المفترض أن

تمارس منذ أمد طويل. ويشعر القارئ بأن إدارة بوش توغلت في الإيديولوجية لدرجة جعلتها تنبذ أي أفكار أساسها الواقع.

يصف بايمان التغييرات التي طرأت على منظمة القاعدة والجدال الذي دار حولها في الولايات المتحدة والخطر الذي تمثله اليوم. وهو يستعمل في ذلك العديد من المصادر ليصل إلى استنتاج بأن القاعدة تهدف إلى التحكم في الأراضي والسلطة، في أفغانستان مثلا بحيث يصبح ذلك طريقا للوصول إلى تأسيس خلافة دولية مستقبلا. وهو يعتقد بأن حرب العراق كارثة خلقت "فقاسة" للمجاهدين ومعتبرا أنه من المستحيل على الولايات المتحدة أن تنتصر فيها. ويقدم بايمان استراتيجيات بديلة للتغلب على منظمة القاعدة، منها إعادة تنظيم القوات العسكرية بشكل جذري بحيث تكون مهمتها الأساسية محاربة التمرد والقيام باغتيال قادة الإرهابيين متى دعت الحاجة إلى ذلك. ولكنه لا يقول لنا إذا ما كانت للولايات المتحدة القدرة على القيام بذلك بمفردها أو إذا ما تطلب الأمر اعتماد على التحالف بين عدد من الدول.

ويثير بايمان نقطة هامة ولكنها منسية أن الحرب الدعائية التي تشنها منظمة القاعدة أكثر فعالية في العالم الإسلامي من تلك التي تقوم بها الولايات المتحدة، وبأن "العراق صار عطية كبري للقاعدة من حيث العلاقات العامة". فالمنظمة اليوم تطالب على موقعها فوق شبكة الإنترنت بمتطوعين لهم خبرات في تقنيات المعلومات وثورة الاتصالات. بل أن القاعدة تشعر بقوتها لدرجة أنها تروج علنا لمعسكرات التدريب التابعة لها، وقام المجاهد العراقي المخضرم أبو كشة الذي يدير معسكرا للانتحاريين في مير علي بمناطق باكستان القبلية بإطلاق شريط فيديو في أبريل الماضي يدعو فيه إلى الجهاد ضد الولايات المتحدة وحلفائها وعارضا خدماته لتدريب الأجانب على الجهاد.

لن يكون من السهل مواجهة مثل هؤلاء الخصوم. يقول بايمان بأن على البيروقراطية التي تدير رسالة الولايات المتحدة أن تصبح أقوى وأن تلعب دورا أكبر، وإعطاء الموظفين القائمين عليها مناصبا أعلى. ولكنه يفشل غي إخبارنا عن نوع الرسالة التي على الولايات المتحدة إطلاقها نحو المسلمين الشباب المستلبين كبديل عن الحديث السلبي عن منظمة القاعدة. كما أنه لا يقترح أين على الولايات المتحدة أن تجد مثل هؤلاء البيروقراطيين المطلعين الواعيين. ولكنه يعرف عدة تحديات هامة على الساسة الأمريكيين مواجهتها.

أما فيليب غوردون فيوضح موقفه منذ بداية الكتاب: "إن الإدارة فاشلة لأنها تشن الحرب الخطأ، وتؤمن باستعمال اللهجة الصارمة والقوة العسكرية في وقت تكون فيه الأيديولوجية والمعلومات والدبلوماسية والدفاع أكثر أهمية من ذلك." وهو يصف كيف قام الرئيس السابق بوش باستمرار برسم صورة كاذبة مبسطة عن الحرب ضد الإرهاب على أنها ضد أشرار يكرهون القيم الأمريكية، ويضيف بأن الولايات المتحدة كسبت الحرب الباردة من خلال احتواء الاتحاد السوفيتي باستراتيجية مشعبة وبأن هذا هو ما يحتاجه التعامل مع المجاهدين. فهي حرب طويلة الأجل تحتاج إلى أفكار وليست من نوع الحروب القصيرة التي دربت على شنها القوات الأمريكية.

ويكتب غوردون بأنه كان على إدارة بوش أن تتخذ خطوات شجاعة تجاه سياسة الطاقة الوطنية وممارسة دبلوماسية أكثر تركيزا وإطلاعا في الشرق الأوسط في سبيل شن الحرب الصحيحة. ولديه قائمة طويلة من الأمور التي يجب القيام بها: إغلاق معتقل جوانتانامو، رفع ميزانية الدفاع الوطني، إعادة تعمير خدمات المعلومات في الولايات المتحدة، وتقليل إعتماد البلاد على البترول العربي. كما يجادل بوجوب انسحاب الولايات الأمريكية من العراق والتعامل مع إيران دبلوماسيا لأن لديها تأثير كبير على جارتها الشيعية. كما على الولايات المتحدة "إعادة وضعها كوسيط نزيه بين العرب والإسرائيليين والقيام بمجهودات أكبر بكثير لتأسيس السلام بين إسرائيل وفلسطين."

ويستحسن أن تأخذ الإدارة الأمريكية القادمة تحليل وتوصيات كل من بايمان وغوردون مأخذ جد. فقد ارتفع عدد المعارك والهجمات الانتحارية هذا العام في العراق وأفغانستان. فمن يناير إلى مارس ٢٠٠٨ قام الطالبان بحوالي ٧٠٠ هجوم راح ضحيتهم ٤٦٣ مدني، مقابل ٤٢٤ هجوم و٢٦٤ قتيل في نفس تلك الفترة العام الماضي. بل إن الطريقة التي تجري بها الولايات المتحدة الحرب ضد الإرهاب جعمت من رسالة المجاهدين وشجعت على انتشار منظمة القاعدة وحلفائها في أوربا وخارجها. ليس هناك حل سريع لقضية الهجمات الإنتحارية في أفغانستان والعراق وغيرهما، بل لن يقوم على ذلك سوى مجهود كبير طويل المدى لإعادة تشكيل الدبلوماسية الأمريكية وخلق سياسات جديدة للمعونات وبناء مؤسسات الدولة واستعمال القوة العسكرية معا بمساعدة الدول الأخرى.